

النصوص الشعرية "المقرأة" عند شعراء صدر الإسلام

دراسة وصفية تحليلية

“Quranized” Poetic Texts in Early Islamic Poetry: A Descriptive and Analytical Study

دكتورة مهى عبد القادر مبيضين

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة آل البيت - قسم اللغة العربية وآدابها المفرق - الأردن

missfatina@yahoo.com

تاريخ النشر: 14/07/2026

تاريخ القبول: 18/01/2025

تاريخ الاستلام: 28/09/2025

ملخص:

أحدث بزوغ فجر الإسلام ونزول القرآن الكريم، أثرا عظيما في حياة العرب بمناحيها المختلفة، وغيّر في جوانب الفكر وأدواته، خاصة اللغة وما تضمنته من ألفاظ، فبدّل معاني بعضها، واستحدث ألفاظا جديدة كلياً، وهو ما بدا جلياً عند شعراء صدر الإسلام، خاصة المخضرمين منهم، إذ بدأ أولئك الشعراء باستعمال هذه الألفاظ بمعانيها ودلالاتها المستحدثة في محاولة منهم لـ "قرأة" أشعارهم، عبر استلهم نصوص القرآن الكريم وآياته؛ للتعبير عن موضوعاتهم، وشرعوا بالترويج لهذه الألفاظ الإسلامية التي اكتسبت معاني مغايرة لما عُرفت به، والمصطلحات الجديدة التي لم يكن لها قبل الإسلام هذا المدلول. فمن الألفاظ التي تغيرت معانيها مثلاً: "الكفر"، وأصل الكفر عند العرب، تغطية الشيء وستره، ولذلك سموا الليل كافراً لتغطية ظلمته ما لبسته، ليصبح للكفر، بعد ظهور الإسلام، مدلول ديني يعني جحود الخالق ونكران المعبود، و"الصلاة" عرفت عند العرب بأنها الدعاء، لكنها باتت مصطلحاً شرعياً بعد الإسلام، ومثل ذلك: الحج، والعمرة، والتميم، والركوع، وغيرها من الألفاظ التي كانت معروفة عند العرب وواردة في

أشعارهم، وإن انتقلت دلالتها. ويضاف إلى هذه الألفاظ أخرى مستحدثة أوجدها القرآن، مثل: الجزية والإلحاد والإيمان والإسلام والهداية وبعض أسماء الله الحسنى.

يعتبر القرآن الكريم مفخرة العرب، بما يكتنزه من بلاغة لغوية وبيانية، وماله من أثر عظيم في النفوس والقلوب، كما أحدث ثورة في الأدب العربي، عبر محاور عدة تتوزع بين اللغة والأسلوب، والمعاني والأفكار، والصور والأخيلة. ولعل أول المتأثرين به وأكثرهم هم الشعراء بما يمتلكونه من كفاءات في فنون القول وأساليب التعبير، بل ذهب بعضهم إلى دراسته مأخوذين بمادته وأسلوبه حتى شغلوا به عن نظم الشعر ومزاولته .

يتتبع البحث الأثر الذي أحدثه القرآن الكريم في قصائد وأبيات عدد من شعراء صدر الإسلام، وتوجههم نحو "قرأة" نصوصهم، مستفيدين في ذلك من ثقافتهم القرآنية الواسعة ومعرفتهم اللغوية العميقة، حيث سنعمد في ذلك إلى تتبع الألفاظ القرآنية في تلك النصوص، والمعاني والآيات التي وظفها الشعراء في قصائدهم، لتقوية حجاجهم اللغوي في مواضيع مختلفة تنوعت بين الغزل والمديح والهجاء والثناء، وهي المواضيع الرئيسة التي تحور حولها الشعر في تلك الفترة، وظهر موضوعات جديدة مثل الدعوة إلى الإسلام. وكان للثقافة الدينية التي تملك شعراء تلك الفترة مع قرب عهدهم بالنبوة، وظهر الدعوة، أثر كبير في تعميق تأثرهم بالإسلام، وحرصهم على حفظ القرآن والتمسك بالعقائد، لينهلوا من هذا المعين الثر .

وعمد الشعراء إلى قرأة قصائدهم بتوظيف المعاني والدلالات الدينية في خطابهم الشعري، حيناً لإضفاء مزيد من الجمالية اللغوية عليها، وحيناً آخر لخدمة حجاجهم البراغماتي، حتى باتت القرأة من أبرز السمات التي ميزت خطابهم الشعري، وشكلت ظاهرة فنية وحجاجية لافتة وجديرة بالدراسة. لذا سيتطرق البحث إلى ذكر ما أمكن من الألفاظ والمعاني القرآنية التي استلهمها شعراء هذه الفترة، ووظفوها في طرح أفكارهم والدفاع عنها، وشرح معانيها السابقة واللاحقة، والتغير الذي طرأ على استعمالها بعد ظهور الإسلام، وورودها في آيات القرآن، وذلك بهدف إبراز الصورة الجمالية الفائقة في توظيف مفردات القرآن وآياته، والإفادة من معانيه وجمال لغته وعلو أسلوبه وبلاغته.

الكلمات المفتاحية: المقرأة الشعرية، صدر الإسلام، الألفاظ القرآنية، الحجاج الشعري، الموضوعات الشعرية.

Abstract:

The emergence of Islam and the revelation of the Qur'an brought about a profound transformation in Arab life, influencing intellectual, linguistic, and cultural domains. Language, in particular, underwent significant change: some lexical items acquired new semantic dimensions, while others were newly introduced. This impact is clearly observable in the works of Early Islamic poets, especially the mukhaḍramūn (those who lived during both the pre-Islamic and early Islamic periods). These poets deliberately integrated Qur'anic terminology with its renewed semantic and religious connotations into their poetry, thereby "Quranizing" their texts. Through this process, they drew inspiration from Qur'anic discourse and promoted a lexicon that was redefined by Islam or newly coined within its framework.

Examples include words such as *kufr*, which originally denoted "covering or concealing" but came to signify "disbelief in God," and *ṣalāh*, which once meant "supplication" but became institutionalized as a religious practice. Other terms such as *ḥajj*, *ʿumrah*, *tayammum*, and *rukūʿ* underwent similar semantic shifts. The Qur'an also introduced new expressions like *jizyah*, *ilhād*, *īmān*, *islām*, and *hudā*, as well as several of the Divine Names.

Renowned for its rhetorical mastery and eloquence, the Qur'an constituted an unparalleled linguistic and literary milestone, exerting a decisive influence on Arabic literary production. Poets, by virtue of their linguistic sensitivity and rhetorical competence, were among the most receptive to this impact. Some became so engrossed in the Qur'an's stylistic and semantic dimensions that it displaced their poetic endeavors altogether.

This study investigates the imprint of the Qur'an on the poetic corpus of Early Islamic poets and their tendency toward "Quranization." By examining their extensive Qur'anic knowledge and linguistic expertise, the research traces the Qur'anic lexicon, meanings, and verses embedded in their texts, which poets employed to strengthen their rhetorical strategies. These were deployed across traditional genres such as love, praise, satire, and elegy, in addition to

newly emerging themes, most notably the call to Islam. The proximity of these poets to the formative period of Islamic revelation and their religious devotion contributed to their assimilation of Qur'anic language and concepts. The poets' integration of Qur'anic semantics and religious connotations into their discourse not only enhanced its aesthetic dimension but also served pragmatic argumentative purposes. Consequently, "Quranization" became a distinctive stylistic and rhetorical marker of their poetry - a phenomenon simultaneously literary and discursive, and one that merits critical examination. This study, therefore, highlights the lexical and semantic borrowings from the Qur'an, outlines their pre-Islamic and Islamic usages, and demonstrates how these borrowings elevated the aesthetic and rhetorical dimensions of poetic expression.

Keywords: Quranized Poetry, Early Islamic Poets, Qur'anic Lexicon, Semantic Change, Rhetorical Strategies, Poetic Discourse.

المقدمة:

إنَّ فترة ما اصطُلح على تسميته صدر الإسلام يمكن اعتبارها مرحلةً مهمَّةً وحاسمةً فيما يتعلَّق بتحوُّل الشِّعر العربيِّ، حيث بدَّأ ظاهراً وبشكلٍ جليٍّ مدى تأثُّر شعراء تلك المرحلة بالأسلوب القرآنيِّ، وقد أخذ هذا التأثيرُ صوراً وأشكالاً عديدة على ما ظهر في أشعارهم، سواء فيما يتعلَّق باستخدامهم لألفاظٍ أو عبارات قرآنية صريحة، إمَّا بنصِّها، أو بإجراء تصرُّفٍ يسيرٍ عليها لغاية الاستشهاد بها أو لتعزيز المعنى، فقد لوحظ دخول العديد من المفردات الدِّينية والقرآنية في أشعارهم، بعد أن كانت تسيطر عليهم ألفاظُ البيئة الجاهليَّة.

كما طال هذا التأثيرُ العديدَ من الأغراض الشِّعرية، فبعد أن كانت تغلبُ عليها مواضيعُ الفخرِ والهجاءِ والغزلِ الذي يكون أحياناً فاحشاً، فإنه قد لوحظ عليهم الميلُ نحو أغراضٍ جديدةٍ تتضمَّن الموعظةَ والحكمةَ والرُّشدَ والجهادَ، ونحو ذلك من المضامين الأخلاقية.

ومن صور تأثر شعراء تلك المرحلة: استفادتهم من الأسلوب البياني والبلاغي للقرآن الكريم ومن معانيه أيضاً، فبدأنا نشهد استخدامهم للصُّور البيانيَّة القرآنيَّة، مثل التَّشبيهاَت والاستعارات، والمحسِّنات البديعيَّة بكافَّة أشكالها، والتَّركيز على المضامين ذات الطابع الدِّيني والأخلاقي بكلِّ ما تشتمل عليه من قيم ومَعانٍ جديدة. ومن هنا جاء استخدامي لمصطلح «المقرأة» لبيان ووصف تلك السِّمات الأسلوبية والمعمميَّة والفكريَّة التي استلَّهَها شعراء هذه المرحلة، فهذا المصطلح (المقرأة) إنّما جاء كمحاولةٍ الغايَةُ منه الكشف عن مدى ذلك التحوُّل الذي طرأ على لغة الشعراء وفكرهم تحت تأثير القرآن الكريم بشقّي وجوه إعجازه، والذي أعطى - بدوِّه - مؤشِّراً على هذا التفاعل القائم بين الثقافة الإسلاميَّة المتمثِّلة تحديداً بالقرآن الكريم مع الشَّعر العربي، ذلك أنّ هذا الشَّعر لم يَبْقَ على ما كان عليه في العصر الجاهلي، وإنَّما أصبح يحملُ في بعض جزئياته نفساً قرآنيّاً من حيث الشَّكل والمضمون والأسلوب.

ولأجل ذلك كلّ جاءت هذه الدراسة التي تقوم على سَبْر أغوار هذا التفاعل المشار إليه آنفاً من خلال تحليل بعض النُّصوص الشَّعريَّة، بما اشتملت عليه من الألفاظ والصُّور والمعاني والتراكيب التي بدَّا فيها التأثير بالأسلوب القرآني واضحاً، ومن ثمَّ الوقوف على مدى هذا التأثير بالنَّص القرآني.

ولأنَّ العودة إلى الأصل اللُّغوي لأيِّ كلمة، من شأنه أن يكشف عن معاني عميقة تُسهِم في فَهْم طبيعتها ووظيفتها، ولا سيَّما أنّ اللغة العربيَّة تمتاز بترائها ودقَّة ألفاظها، فهي تقوم على نظام اشتقاقي يجعل كلّ كلمة تمتدُّ بجذورها إلى أصل لغويٍّ يحمل معنًى جوهريّاً، وهذا الجذر أو الأصل بمثابة المفتاح الذي يمكن من خلاله اللؤلُج إلى فَهْم المعاني المتفرِّعة للكلمة في مختلف السِّياقات.

ولأنَّ كلمة «القرآن» تُعدُّ من أبرز المصطلحات التي نشأت في الإسلام، فهي تشير إلى الكتاب المنزَّل على النبيِّ محمَّد -صلى الله عليه وسلّم-، ومن هنا، فإنَّ العودة إلى الجذر اللُّغوي لهذه الكلمة يفتح أفقاً أرحب لفهم أوجه دلالتها المتعدِّدة، من جهة كونه نصّاً محفوظاً في الصُّدور، ومسطوراً في المصاحف، فالقرآن باعتباره

كلام الله - تعالى - المعجز يحمل في اسمه دلالات تتجاوز المفهوم السطحي للألفاظ، الأمر الذي يدعو إلى التعمق في أصل الكلمة وجذورها اللغوية لاستجلاء معانيها بشكل أوضح.

أهداف الدراسة:

1. الكشف عن مدى تأثر شعراء صدر الإسلام بالأسلوب القرآني في عملية صياغة نصوصهم الشعرية، مع بيان كيفية استخدامهم للتراكيب والألفاظ القرآنية في شعرهم.
2. بيان كيفية توظيف شعراء صدر الإسلام النصوص القرآنية لأغراض بلاغية، أو دينية، أو سياسية.
3. الوقوف على أبرز ملامح التحول في بنية الشعر في فترة صدر الإسلام.
4. محاولة التعرف على دوافع هذا التأثير.

إشكالية البحث:

1. ما مدى تأثير الأسلوب القرآني على شعراء صدر الإسلام؟
2. كيف استخدم شعراء صدر الإسلام الألفاظ والتراكيب القرآنية؟
3. هل يمكن اعتبار هذا التأثير ظاهرة أدبية صرفة، أم أنها جاءت انعكاساً للبيئة الجديدة، ونتيجة تفاعل ثقافي ولغوي، فرضه وجود النص القرآني بكل ما اشتمل عليه من ألفاظ ومعاني لم تكن مألوفة؟

الدراسات السابقة:

تشير الباحثة، من باب الإنصاف، إلى أن دارسين كثير تناولوا في دراسات عديدة؛ الشعر في صدر الإسلام، ضمن اتجاهات متنوعة، وعناوين مختلفة، لكنها آثرت أن تضيفي على هذه الدراسة فريدة بتناولها مصطلحا جديداً يُعنى بـ "قرأة" أولئك الشعراء لنصوصهم، وتُمايز فيه بين "التناص" بمفاهيمه النقدية الحديثة، واعتماد أولئك الشعراء على القرآن الكريم بصورة أساسية في العديد من موضوعاتهم الشعرية، عبر الغوص في مكنوناته اللغوية، وسبر أغوار معانيه؛ لينهلوا منها ما يضيفي على قصائدهم جمالية فريدة، ويتعدوا من خلالها عن بعض الموضوعات التقليدية في الشعر الجاهلي فغيروا في ترتيب الموضوعات الشعرية وابتكروا أختي جديدة، بحيث تكون هذه الدراسة مفتاحاً للباحثين من أجل السير على النهج ذاته، في

دراسة شعراء آخرين لم تسمح محدودية المساحة الممنوحة لها بتناول أعمالهم. ومن الدراسات التي تناولت مواضيع مشابهة نذكر:

- حلي، صباح بنت عمر: تطور دلالات الألفاظ الدينية بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة: المملكة العربية السعودية، 1988.
- معشي، حامد محمد. البدوي، دشن بابكر: أثر الإسلام في شعر حسان بن ثابت، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم درمان: السودان، 1999.
- الخواطر، أحمد جمعة فهد: توظيف الإسلام في قصيدة المديح في العصر الأموي، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة آل البيت، المفرق: المملكة الأردنية الهاشمية، 2003.
- إسماعيل، سليمان مختار محمد: الخطاب الديني في قصيدة المديح الأموية، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة اليرموك، إربد: المملكة الأردنية الهاشمية، 2004.
- محسن، علياء حكيم: ألفاظ القرآن الكريم وتعايره في شعر أوائل فحول العصر الأموي، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة بغداد: العراق، 2005.
- السبتي، سلطاني: حجاجية التناس الديني في شعر جرير؛ مقارنة تداولية، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة باجي مختار، عنابة: الجزائر، المجلد 24 - عدد 04 - ديسمبر 2018.
- المطيري، نسرین عبدالعزيز سلطان: مدائح جرير؛ دراسة مضمونية فنية، رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الأردنية: المملكة الأردنية الهاشمية، 2017.

الجذر اللغوي لكلمة القرآن:

بالعودة إلى معاجم اللغة وكتب المعاني، يتبين للباحث أنّ أصل هذه الكلمة قد وقع فيه اختلاف بين أهل اللغة، على ما سيأتي بيانه.

فمن المفيد هنا -ابتداءً- الوقوف على الجذر اللغويّ لكلمة (القرآن)، والميزان الصرّيّ لمصطلح (مُقْرَأَن).

أولاً: الجذر اللغوي لكلمة (القرآن):

هناك عدّة أقوالٍ وَرَدَتْ في الجذر اللغويّ لكلمة (القرآن):

الأول: أنّها مشتقة من الفعل «قرأ»، بمعنى: تَلَا، وهذا من باب إطلاق المصدر وإرادة مفعوله، فالقرآن بمعنى مقروء؛ أي: مثْلُو، وهو في الأصل بمعنى الجمع والضمّ، يُقال: قرأت الماء في الحوض؛ أي: جمعته فيه، وإنّما سُمِّيَ قرآنًا لأنّه يجمع الآيات والسُّور، ويضمُّ بعضها إلى بعض، وهو مصدرٌ كالْعُقْران⁽¹⁾.

وقال أبو عبيدة: «وإنّما سُمِّيَ قرآنًا لأنّه يجمع السُّور فيضمُّها، وتفسير ذلك في آية من القرآن، قال الله جلّ ثناؤه: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) [القيامة: 17]، مجازُهُ: فإذا ألّفنا منه شيئًا، فضمّناهُ إليك فخذْ به، واعملْ به وضمِّه إليك.

ذِرَاعِي حُرَّة أَدْمَاء⁽²⁾ بِكْرٍ⁽³⁾ هَجَانٍ⁽⁴⁾ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

أي: لم تضمِّ رحمُها ولدًا قطُّ، ويُقال للتي لم تحمل قطُّ: ما قرئت سَلَى قطُّ، وفي آية أخرى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ) [النحل: 98]، مجازُهُ: إذا تلوَت بعضُهُ في إثر بعضٍ حتى يجتمع وينضمُّ بعضُهُ إلى بعض، ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع⁽⁵⁾.

(1) ينظر: الزَّيْدِيّ، محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، المُلَقَّب بِمِرْطَضَى الزَّيْدِيّ (ت1205)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار الهداية، ج11، ص374، مادة (قرأ).

(2) الأَدْمَاء: البيضاء منها، فالأَدْمَةُ: البياض في الإبل. ينظر: الزَّوْزُيِّيّ، حسين بن أحمد بن حسين (ت486هـ)، شرح المعلقات السَّبع، ط1، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 1423هـ/2022م)، ص318.

(3) البكر: الناقة التي حملت بطنًا واحدًا. المصدر السابق، ص318.

(4) الهجان: الأبيض الخالص البياض. المصدر السابق، ص318.

(5) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيميّ البصريّ (ت209هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ج1، ص1-2.

ويُستخلص من هذا القول: أنَّ معنى القرآن مرادفٌ للقراءة، ولكنَّ تَبَّه الراغب الأصفهانيُّ أنه لا يُقال ذلك لكلِّ جمع، فقال: «لا يُقال قرأتُ القوم: إذا جمعْتَهُمْ، ويدلُّ على ذلك أنه لا يُقال للحرف الواحد إذا تُفَوِّه به قراءة، والقرآنُ في الأصل مصدرٌ، نحو: كُفِّرَانٌ وَرُجْحَانٌ»⁽¹⁾.

والقول الثاني: أنَّ كلمة «القرآن» اسمٌ وليس بمهموز، وغير مأخوذٍ من «قرأ» ولكنه اسمٌ لكتاب الله مثل التَّوْرَةِ والإنجيل، وبهذا قال الإمام الشافعيُّ فيما رواه عنه بإسناده كلُّ من الخطيب البغداديِّ والبيهقيُّ، أنه قال: «وقرأتُ على إسماعيل بن قُسطنطين، وكان يقول: القرآن اسمٌ وليس بمهموز، ولم يؤخذ من (قرأت)، ولو أُخِذَ من (قرأت) كان كلُّ ما قُرئ قرآنًا، ولكنَّه اسمٌ للقرآن، مثل التَّوْرَةِ والإنجيل، يُهمز (قرأت) ولا يُهمز القرآن، وإذا قرأت القرآن تهمز (قرأت) ولا تهمز القرآن»⁽²⁾.

والقول الثالث: أنه مشتقٌّ من القرائن، جمع قَرينة، لأنَّ آيَاتِهِ يُشَبَّه بعضها بعضًا، فكأنَّ بعضها قَرينةٌ على بعض، وبهذا قال الفراء⁽³⁾.

والقول الرابع: أنه مشتقٌّ من القرآن، من قَرَنْتُ الشيءَ بالشيء: إذا ضَمَمْتَ أحدهما إلى الآخر، سُمِّيَ بذلك لقرآن السُّور والآيات والحروف فيه، وإلى هذا ذهب أبو الحسن الأشعريُّ⁽⁴⁾. وعلى كلا القولين الأخيرين هو بلا همز، ونُونه أصليَّة.

(1) الراغب الأصفهانيُّ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد (ت502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، 1412هـ، ج1، ص668.

(2) الخطيب، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشَّار عَوَّاد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/2002م، ج2، ص401، والبيهقيُّ، أحمد بن الحسين الخراساني (ت458هـ)، معرفة السُّنن والآثار، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعي، ط1، نشر جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ودار قتيبة، دمشق، بيروت، ودار الوعي - حلب، دمشق، 1412هـ/1991م، ج14، ص472.

(3) ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج1، ص182.

(4) ينظر: الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1376هـ/1957م، ج1، ص278.

والراجح من الأقوال - فيما ترى الباحثة - هو القول الأوّل القائل أنّ لفظ (القرآن) إنما هو مصدرٌ مرادفٌ للقراءة، ثم نُقل هذا المعنى المصدريّ وجُعِلَ اسمًا للكلام المعجز المنزّل على النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من باب إطلاق المصدر على مفعوله، وعلى هذا المعنى جاء قول الزُّرقاني: «وذلك ما نختاره استنادًا إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق، وإليه ذهب اللحيانيّ وجماعة»، وما سوى ذلك من الأقوال فإنه قال فيه: «لا يظهر له وجهٌ، ولا يخلو توجيهه بعضه من كُلفةٍ، ولا من بُعْدٍ عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة»⁽¹⁾.

ثانيًا: الجذر اللغويّ والمعنى الاصطلاحي لكلمة (قُرْأَة):

سلف القول أن لفظة (القرآن) مأخوذة من الفعل (قرأ)، أمّا مصطلح (قُرْأَة) فهو على وزن (فَعْلَلَة)، كما يُقال: عَوَّلَمَ المشتقُّ من الفعل (عَلِمَ) وأَسْلَمَ من الفعل (أَسْلَمَ).

وكلمة (قُرْأَة) من الكلمات المستحدثة، ولم أقف - على حدِّ علمي - على مَنْ استعملها قبل ذلك، وهي غير مثبتة في المعاجم اللغوية أيضًا.

وقد استَحَسَنْتُ استخدامها لغاية الإشارة إلى بعض النصوص الشعرية التي تحمل طابعًا قرآنيًا في اللغة، أو في الأسلوب، أو في البنية، أو في المعنى والمضمون، ممّا يمكن أن نَصِفَه بالمرجعية؛ للتدليل على مدى تأثّر شعراء فترة الصّدر الإسلامي بالنصوص القرآنية، والمطعّمة بأسلوبه البديع.

فعلى مقتضى ذلك، يمكن القول: إنّ مصطلح (القُرْأَة) إنما يُعْنَى بدراسة وبيان كيفية تداخل النصوص القرآنية، والوقوف على مدى تأثّر شعراء صدر الإسلام بها، من عدّة وجوه، ومن ذلك الألفاظ، والصُّور، والبنية اللغوية، والمعاني.

⁽¹⁾ الزُّرقاني، محمد عبد العظيم (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ج1، ص14.

والحدُّ الفاصلُ ما بين مصطلحي التَّنَاصِّ والقُرْأَةِ: هو أنَّ التَّنَاصَّ يقوم على دراسة تداخل النصوص بشكل عام.

وأما القُرْأَةُ، فإنما تُركِّز فقط على دراسة مدى تأثير القرآن الكريم على النصوص الأدبية، ومن جملتها الشُّعْر، والمراد هنا شعر صدر الإسلام بشكل خاص.

ولأجل استكشاف هذه الظاهرة في شعر مجموعة من شعراء تلك المرحلة، كان لا بدَّ من تقديم نماذج مختارة من أشعارهم تُبرز مدى هذا التأثير، وتكشف عن ملامح التداخل النَّصِّي بين الشُّعْر والقرآن، ومدى حضور التَّنَاصِّ والاقْتباس والتَّضمين في هذا السِّياق، وذلك لفهم الكيفيَّة التي شكَّلت بها القرآن الكريم وجدانَ الشُّعراء وأساليبهم.

وقد ارتأيتُ أنه من الأنسب مراعاة التَّرتيب الزماني في عرض هذه التَّمازج الشعرية المختارة، لما لذلك من دورٍ يُسهم في كشف تطوُّر هذه الظاهرة (القُرْأَةِ)، ولذلك رُتِّبَت هذه الأشعار وفق تسلسلها التاريخي، بدءاً بشعراء الصحابة، والجيل الأوَّل الذين عايَشُوا الوحي القرآني، وكانوا قريبين من زمن التَّنزيل، مروراً بشعراء صَدْرِ الدَّولة الأمويَّة الذين اتَّسعت ثقافتهم، وتعدَّدت أغراضهم الشعرية، وانتهاءً بشعراء لاحقين لهم تأثروا بالقرآن من خلال البيئة الإسلامية في أواخر الدَّولة الأمويَّة.

وفيما يلي عرضٌ لنماذج من أشعار مرحلة الفتح الإسلامي، أُبْرزُ فيه ما أحدثه القرآن الكريم من تحوُّل في وجدان الشاعر العربي، وبيان أنَّ الشُّعْر لم يكن بمعزولٍ عن التحوُّل الذي أحدثه القرآن الكريم في حياة العرب بشكل عام، وإظهار كيف دخل الشُّعراء في علاقةٍ جديدةٍ اتَّخذت أبعاداً لغويَّةً وبيانيَّةً وثقافيَّةً رُوحِيَّةً، تجلَّت فيما أطلقت عليه بمصطلح "القُرْأَةُ"، وهي ظاهرة تأثَّر الشُّعراء بالقرآن الكريم في لغتهم وأسلوبهم وصُوْرهم، وفي المعاني والمضامين - كما أشرتُ فيما سلف -، وحتى في رؤيتهم لكلِّ ما يُحيط بهم.

أولاً: نموذج من شعر حسان بن ثابت:

قال مخاطباً خُصومَ الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - وخُصومَ الإسلام:

أَهْجُؤُهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ خَيْرُكُمْ مَا الْفِدَاءُ

هَجَوْتُ مَبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ⁽¹⁾

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

الاقْتباسات والتّصنيفات القرآنية في النصّ السابق:

1- قوله: "هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا"، فالكلمتان "بَرًّا" و"حَنِيفًا" من أوضح الألفاظ والمفردات القرآنية المستخدمة في وصف بعض الأنبياء، ومن ذلك قوله تعالى في وصف إبراهيم - عليه الصّلاة والسلام - والنبيّ محمّد - صلى الله عليه وسلم - تَبَعًا لَهُ: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) [التّحل: 120]، وقوله تعالى في عيسى - عليه السلام -: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) [مريم: 14]، ولا شك أنّ استخدام هذه المفردات يكشف عن تناصّ دينيّ صرّف ومباشر، حيث سعى حسان بن ثابت إلى عملية ربط النبيّ - صلى الله عليه وسلم - بمقام الأنبياء، وتحديدًا إبراهيم - عليه الصّلاة والسلام - كما تشير إليه كلمة "حَنِيفًا" وهذا ما أضفى على صفاته بُعدًا قرآنيًا ظاهرًا.

2- قوله: "فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَيْكُمْ"، وهذه أيضًا عبارة صريحة بشكل جليّ تحاكي نصًّا قرآنيًا، لطلما تكرّر في سور عديدة، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي) [الأعراف: 144]، فلغة حسان هنا جاءت لغةً تقريريةً تُشبه الأسلوب القرآنيّ في تأكيد أفضليّة الرّسول - صلى الله عليه وسلم - فيلاحظ

(1) حسان بن ثابت الأنصاري، ديوانه، شرح وتقديم: عبد علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ/1994، ص21.

أنّ هذه التصنيفات لم يَغْلِبَ عليها طابعُ الزَّخرفة، لأنها تحمل وظيفةً دفاعيةً وعقائدية، أكسبت النصَّ الشعريَّ سلطةً مستمدةً من مكانة القرآن الكريم وقُدسيَّته.

ثانياً: نموذج من شعر عبد الله بن رواحة: قال:

تالله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
الكافرون قد بغوا علينا	وإذا أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سَكينةً علينا	وثبتت الأقدام إن لاقينا ⁽¹⁾

ملاحم القرآنة في هذا النص:

1- يلاحظ كيف بدأ الشاعر بأسلوب قَسَميٍّ تعبديٍّ، وهو: "تالله"، وهو أسلوب قرآنيٌّ، تكرر في مواضع كثيرة، ومن ذلك: (تالله لئن لم نُفِضْكُمْ تَفْضُلاً) [النحل: 56]، ونحو ذلك مما هو موجود بين دفّتي القرآن الكريم.

2- قوله: "لولا أنت ما اهتدينا"، قريبٌ جداً من مضمون بعض الآيات القرآنية، مثل: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) [الأعراف: 178]، وقوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [القصص: 56].

3- وقوله: "ولا تصدقنا ولا صلينا" فإنَّ استخدام صيغة الجمع تعكس الوعي الجمعي الإسلامي، كما أنَّ لفظي: "تصدقنا" و"صلينا" هما من أركان الإسلام، ومجيئهما على هذا الترتيب إنما هو محاكاة لما ورد في

(1) ابن رواحة، عبد الله بن رواحة الأنصاري، ديوانه المطبوع ضمن كتاب دراسة في سيرته وشعره، الدكتور وليد قصاب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط 1402هـ/1982م، ص 96.

مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك: (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)[القيامة: 32-31].

4- وقوله: "فَأَنْزَلْنَاهُ سَكِينَةً عَلَيْنَا" هذا تعبير قرآني مباشر مُستمد من مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ)[التوبة: 40]، وقوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)[الفتح: 26].

وبذلك يظهر مدى هذا التأثير المباشر واللفظي، الذي يُبيّن استحضار أسلوب القرآن الكريم في مواقف القتال والدُّعاء.

5- وقوله: "وَوُتِبَ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا" فيه استلهام واضح مما ورد في القرآن الكريم، فهذا التعبير يتردّد كثيراً فيه، ومن ذلك قوله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَمَعَكُمْ فَتَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا)[الأنفال: 12]، وقوله: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا)[النساء: 96].

فمن مجموع هذه الأبيات يظهر مدى التأثير اللفظي والمعنوي المباشر بالقرآن الكريم، حيث استدعى الشاعر معاني الآيات في سياق تعبديّ وقت القتال، الأمر الذي يُظهر مدى تماهي الوجدان الشعري بالأسلوب القرآني، لدرجة أنه يمكن أن يُقال: إنّ الشعر في تلك المرحلة لم يقتصر دوره في هذه الظروف الجهادية على التفخّر فحسب، وإنما غدا وسيلة تعبير إيمانيّ وروحيّ.

ثالثاً: نموذج من شعر عمرو بن معدي كرب الرُبَيْديّ:

إِنِّي بِالنَّبِيِّ مُوقِنَةٌ نَفْسِي وَإِنْ لَمْ أَرَ النَّبِيَّ عَيَانَا
سَيِّدُ الْعَالَمِينَ طَرًّا وَأَذْنَاهُمْ إِلَى اللَّهِ حِينَ بَانَ مَكَانَا
جَاءَنَا بِالنَّمَامُوسِ مِنْ لَدُنِ اللَّهِ وَكَانَ الْأَمِينُ فِيهِ الْمُعَانَا

حكمةٌ بعدَ حكمةٍ وضياءٌ فاهتَدِينَا بِنُورِهَا مِنْ عَمَانَا
ورَأَيْنَا السَّبِيلَ حِينَ رَأَيْنَاهُ جَدِيدًا بَكُرْهِنَا وَرِضَانَا
فَعَلِيهِ السَّلَامُ وَالسَّلَامُ مِنَّا حَيْثُ كُنَّا مِنَ الْبِلَادِ وَكَانَا⁽¹⁾

ملاحظات المقرأة في هذا النص:

1- استخدامه للألفاظ: "النبي" و"سيد العالمين" و"إلى الله اهتدينا"، و"الناموس"، و"من لدن"، و"السبيل"، إنما هي مستمدة مباشرة من المعجم القرآني، مثل: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) [آل عمران: 144]، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: 107]، (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) [الفتح: 10]، هذا من جهة الألفاظ.

أما توظيفه لهذه الألفاظ فقد تجلّت بمجموعة من المضامين، مثل: التعبير عن الإيمان الغيبي، وتعظيم مكانة النبي - صلى الله عليه وسلم- وذلك يظهر في جملة من العبارات، مثل: قوله: "وإن لم أر النبي عياناً"، فهو يتطابق مع مضمون قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة: 3]، وهذا يُعبر عن صدق الإيمان رغم غياب المعايينة، وهذا من ركائز العقيدة الإسلامية التي دعا إليها القرآن الكريم، وامتنح أصحابها في غير ما آية، ومن ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة: 3].

وقوله في حق النبي - صلى الله عليه وسلم-: "حين بان مكانا"، إنما هو تعبير واضح وقريب من الأسلوب القرآني الذي يحمل معنى تعظيم مقام النبي - صلى الله عليه وسلم- مثل قوله تعالى: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [الشرح: 4]، وقريب منه قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4].

(1) ابن معدي كرب بن عمرو الزبيدي، ديوانه، جمع وتنسيق: مطاع الطريشي، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1405هـ/1985م، ص168.

2- التَّحَوُّلُ العَقْدِي والنَفْسِي: وقد ظهر من خلال تركيزه على إعلان تحوُّله من عُمق الجاهلية إلى نور الإسلام، على ما ظهر جليًّا في قوله: "فاهْتَدَيْنَا بَنُورَهَا مِنْ عَمَانَا"، شَبَّهَ تلك الحالة التي كان عليها في فترة ما قبل الإسلام بحال الأعمى، وهذه استعارة قرآنية واضحة لحالة الهداية بعد الضلال.

وأما قوله:

وَرَأَيْنَا السَّبِيلَ حِينَ رَأَيْنَاهُ جَدِيدًا بَكْرَهْنَا وَرِضَانَا

فهو تعبيرٌ عن الشعور بالرضى بعد الإنكار، وفيه تصريحٌ منه بأنَّهم قبلوا الرِّسالة بعد التُّفُور، وهو تصوُّرٌ لحال مَنْ دخل الإسلام بعد تردُّدٍ أو جهل، وهذا يُشبهه إلى حدٍّ بعيد معنى ما في قوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) [البقرة: 216].

3- التَّصْرِيحُ بالتَّوْحِيدِ على نحو ما جاء في القرآن الكريم، والتَّسليم الكامل لدعوة النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وذلك يتجلَّى في قوله:

وَعَبَدْنَا إِلَاهَ حَقًّا وَكُنَّا عَدُوًّا وَرَجَعْنَا بِهِ مَعًا إِخْوَانًا

فهذا إعلانٌ صريحٌ منه بانتمائه لعقيدة التَّوْحِيدِ، التي هي محور الدَّعوة الإسلامية كما في قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [محمد: 19]، كما أنه يحمل تعبيرًا قويًّا عن التَّحَوُّل من العداوة إلى الأخوة بالإسلام، وهذا المعنى قريبٌ من قوله تعالى: (وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [آل عمران: 103].

وقوله:

فَعَلِيهِ السَّلَامَ وَالسَّلَامُ مِنَّا حَيْثُ كُنَّا مِنَ الْبِلَادِ وَكَانَا

يتضمّن الصَّلَاة والسَّلَام على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - استجابةً لدعوة الله تعالى للمسلمين بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: 56]، كما أن هذا البيت حمّل معنى التواضع والخضوع والاعتراف بمقام النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ويشير أيضًا إلى حال التسليم له بكلِّ ما جاء به. وعمومًا، فإن هذا النصّ المنتزَع من قصيدة عمرو بن معدى كرب تتجلّى فيه الملامح القرآنيّة في عدّة جوانب، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ. استخدام الشاعر للمعجم القرآنيّ على النحو الذي سلف بيّانه.

ب. اللجوء إلى المضامين القرآنية، وتحديدًا العقديّة منها، من خلال التعبير عن الإيمان بالغيب، والتّسليم بالنبوّة وصدق الرّسالة، والتحوّل من الكُفر إلى الإيمان ومن العداوة إلى الأخوة، وجميعها مضامين أساسيّة في القرآن الكريم.

ج. التعبير عن الشّعور التّفنسيّ والرّوحي، فهذه الأبيات أظهرت انقلابًا نفسيًّا ورُوحانيًّا حقيقيًّا من المظاهر الجاهلية إلى الإسلام، فتجلّى فيها الخشوع، والصّدق، والاعتراف والتّسليم التامّ لما جاء عن الله تعالى، وعن رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم -.

فهذه الأبيات تعكس حالةً من حالات مظاهر القرأة في شعر شعراء هذه المرحلة في بنية القصيدة ومضامينها وألفاظها، فقد شهدنا فيها انتقال الشاعر من الفخر القَبليّ إلى الفخر بالإيمان، ومن التمجيد الشّخصيّ أو الذاتيّ إلى التّبعية للرسول - صلى الله عليه وسلم، وكلُّ ذلك إنما جاء تحت تأثير حالة القرأة بما تشتمل عليه من ألفاظٍ وأساليب، ومعانٍ، وقد جاءت هذه الأبيات من قصيدة مُشَبَّعة بتلك المظاهر والتي تعتبر بمثابة شهادة شعريّة صادقة عن حالة القرأة التي توحّد فيها المضمون مع اللّغة بصورة جماليّة إيمانيّة رفيعة.

رابعًا: نموذج من شعر النابغة الجعدي (ت50هـ): قال:

مَنَعَ الْعَدْرَ فَلَمْ أَهْمُ بِهِ وَأَخُو الْعَدْرِ إِذَا هَمَّ فَعَلْ

خشية الله وإني رجل إنما ذكرني كنار بقبل⁽¹⁾

ملامح القرآنة في هذين البيتين تظهر فيما يلي:

1- في قوله: "منع العذر فلم أهتم به"، فالشاعر هنا يعبر عن التزامه بالوفاء والبعد عن الغدر، ويجعل ذلك نابعا من خشية الله - تعالى - (كما يتضح في الشطر الثاني)، وهذا اتساق مباشر مع المعايير والقيم الأخلاقية القرآنية، فالقرآن الكريم ينهى عن العذر كما جاء في العديد من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: (وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) [الأنفال: 58]، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) [النساء: 107].

فابتعاد الشاعر عن صفة العذر ليس فقط خلقا عرييا، وإنما صار مبنيا على المعيار الإسلامي: والذي دل عليه قوله: "خشية الله"، والذي ورد مدحه في القرآن الكريم، كما ورد ذم نقيضه: وهو العذر.

2- وقوله: "خشية الله وإني رجل" هذا تعبير صريح يظهر الدافع الإيماني وراء سلوك الشاعر: وهو خشية الله، كما سلفت الإشارة إلى ذلك، وقد تكرر ذكر الخشية في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر: 28]، وقوله: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ يَتَقِهْ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [النور: 52].

3- وقوله: "إنما ذكرني كنار بقبل"، فلفظة: "بقبل" هو ما ارتفع من الأرض وظهر وبان واضحا للعيان، وقد شبه الشاعر نفسه بهذه النار الموقدة على مكان مرتفع الظاهر للعيان من بعيد في الليل، وهو ما يزيد من

*القبَلُ في الأصل: "ما نَشَرَ (أي برز) من الأرض يستقبلك، يقال: رأيتُ بذلك القبَل شخصاً". ينظر: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1407هـ/1987م، ج5، ص1795، مادة: (قبَل). والمراد هنا: الشُّهرة.

(1)النابعة الجعدي: قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح: الدكتور واضح الصمد، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م، ص120.

بلاغة الصُّورة التي استخدمها النابغة الجعدي، والمتمثلة بتشبيه الذِّكر الطَّيِّب بالنار الواضحة من مكانٍ بعيد، أي أنَّ فَضْلَهُ وأَثَرُهُ لا يخفى وإن كان بعيداً، أو كان صامتاً، فهو ظاهرٌ كالضَّوء.

وإذا نظرنا إلى هذا ضمن السياق القرآني، فإن الصُّورة هذه تلتقي مع معاني قرآنية التي يُذكر فيها أنَّ أثر الإنسان لا يضيع، بل يظهر ويُعرف لدى الجميع، ويشتهر بحيث يراه الجميع، القريبُ والبعيد واضحاً وجليّاً لا تُخطئه العين كما يُفهم من قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) [الزلزلة: 7]، وقوله تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ) [الأعراف: 58]، والآيتان يُكمل معناهما الآخر.

فالشاعر جعل ذكره الطَّيِّب ملازماً للتَّقوى وخشية الله كما جاء في ضوء التشبيه المشار إليه، وهو في غاية الدِّقَّة، وهذا يمثّل تحوُّلاً حقيقياً في الرؤية الشَّعرية، يعكس ظاهرة القرأة في اللفظ والمضمون والرَّمز معاً.

وقال أيضاً:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ	مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَا
المُولَجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي	الليْلِ هَارًا يُفْرِجُ الظُّلُمَا
الخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءِ عَلَى	الأَرْضِ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْمَا
الخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصَوِّرِ فِي	الأَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دَمَا
مِنْ نُطْفَةٍ قَدَّمَا مُقَدِّرُهَا	يَخْلُقُ مِنْهَا الْإِبْرَارَ وَالنَّسَمَا
ثُمَّ عِظَامًا أَقَامَهَا عَصَبٌ	ثُمَّ حَمًّا كَسَاهُ فَالْتَأَمَا
ثُمَّ كَسَا الرُّأْسَ وَالْعَوَاقِقَ	أَبْشَارًا وَجِلْدًا تَخَالُهُ أَدَمَا ⁽¹⁾

(1) النابغة الجعدي، ديوانه، ص 47-48.

مظاهر القراءة في هذه الأبيات:

هذه الأبيات تمثل نموذجًا نادرًا لشعراء تلك المرحلة، وهي تتماهى بشكل صريح مع معاني القرآن وأسلوبه، فهي أقرب ما تكون إلى التلاوة الشعرية لعقيدة التوحيد وبيان مراحل الخلق، وفيها تتجلى ظاهرة القراءة بشكلٍ بَيِّنٍ وواضحٍ، سواء في المعجم القرآني، أو في الترتيب التصوري، أو الإيقاع البياني على ما سيأتي بيانه فيما يلي:

1- التمهيد بالتوحيد والحمد: ويظهر ذلك من قوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَ

حيث افتتحها بالحمد، كما جاء في افتتاح العديد من السور القرآنية، ومعرفتها يُغني عن تعدادها هنا، وحسبُك بافتتاح سورة الفاتحة.

وقوله: "لا شريك له" في تقرير التوحيد، وهذا فيه اقتباس من العديد من الآيات، وتكفي الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام: 163]، وسورة الإخلاص.

وقوله: "مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَ"، يعني بذلك الشهادة بالتوحيد، وهذا فيه أسلوب تحذيريٍّ تقريريّ، فيه محاكاةٌ لأساليب القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [المائدة: 47].

وقوله:

الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَنْبِنِ تَحْتَهَا دَعَمًا

فيه اقتباسٌ واضحٌ من آيات عديدة، منها: (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [الحديد: 6]، ومنها: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) [الرعد: 2]، ثم إنه في استخدامه لأسماء الله - تعالى

— الحُسنى "الخافض" و"الرافع" فيه تلميح قرآني، مثل قوله تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [الحديد: 3].

2- الحديث عن مراحل خَلْق الإنسان: وذلك على ما ظهر في قوله:

الخالِقِ الباري المصوِّر في الأرحام ماءً حتى يصير دماً
من نُطْفَةٍ قَدْهَا مُقَدِّرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الأَبْشَارَ وَالتَّسَمَّا
ثُمَّ عِظَامًا أَقَامَهَا عَصَبٌ ثَمَّ لَحْمًا كَسَاهُ فَالْتَأَمَ
ثُمَّ كَسَا الرِّأْسَ وَالْعَوَاقِقَ أَبْشَارًا وَجِلْدًا تَخَالَهُ أَدَمًا⁽¹⁾

فهذه الأبيات تكاد تكون إعادةً شعريةً لجملةٍ من الآيات الواردة في هذا المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) [المؤمنون: 12-14].

وقوله تعالى: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ) [الزمر: 6]، فإنَّ استخدام النابغة الجعدي ألفاظاً قرآنية مباشرةً "نطفة" و"العظام" و"اللحم" على النحو التدريجي في مراحل الخَلْق يوازي تمامًا البناء القرآني في تصوير الخَلْق، ما يدلُّ على أنَّ الشاعر إنما يَنْهَلُ مباشرةً من أَلْفَاظِ القرآن الكريم من عدَّةِ جَوْنِبٍ:

1. المضمون العقدي: المشتتمل على ذكر التَّوْحِيد، والخَلْق، والقُدرة، والحكمة.
2. البنية التصويرية: على نحو ما جاء في ترتيب الخَلْق كما هو موجودٌ في القرآن الكريم.
3. الألفاظ: وقد سبقت الإشارة إلى ذلك قريبًا.

(1) النابغة الجعدي، ديوانه، ص 47-48.

فعلى ضوء ما تقدّم ذكره وبيّانه، يظهر لنا أنّ النابغة الجعديّ لم يكن مجرّد شاعرٍ جاء في صدر الإسلام، إنّما كان صدّي بلاغيّاً صادقاً لما جاء به التنزيل، يُعيد تلاوته شعريّاً بلغة العرب في أرقى مستوياتها، وهذا أمرٌ يمكن القول معه إنّ القرآن غدا مرجعيةً لغويةً وبيانيةً وعقائديةً عند شعراء صدر الإسلام وشعراء الدولة الأموية، فلم يعدّ شعراء تلك المرحلة يُعزّون عن تجربتهم الشعرية بالأسلوب الجاهليّ المتمركز حول ذات الشاعر أو القبيلة في الغالب، بل بدأنا نلاحظ أنه كيف بدأ هؤلاء الشعراء يوظّفون بياضهم الشعريّ في خدمة التوحيد، مُستلهمين ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وأساليبه، وقد بلغت ظاهرة القرأة في شعر النابغة الجعدي حدّ الامتزاج الكلّي بين الشعر ورسالة الإسلام، جامعاً في ذلك بين القول الجميل والقول الحقّ، ليصير شعره امتداداً صوتيّاً للبلاغ القرآنيّ، يعكس صدق الإيمان، وبلاغة البيان، وهي مسألة تستحقّ أن يُطلق عليها (ظاهرة القرأة) بكل ما يحمله المصطلح من معنى.

خامساً: نموذج من شعر الفرزدق (ت110):

رغم أنّ الفرزدق كان معروفاً أنه من شعراء المهجاء والمدح، إلّا أنه قد ظهرت في بعض شعره نبرة قرآنية قويّة، وخاصةً في مدّحه لزين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ رضي الله عنه، وذلك قوله:

هذا الذي تعرّف البطحاء وطأته والبيت والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلّهم هذا التقيّ النقيّ الطاهر العَلَم⁽¹⁾

قد ظهر من هذين البيتين كيفيّة اللجوء إلى أسلوب التوكيد والتعظيم عن طريق استخدام المعطوفات: "الحلّ" و"الحرم" و"التقيّ" و"النقيّ الطاهر"، وإنّ نبرة التعظيم والتّمجيد هذه تُشبه التمجيد القرآنيّ في بعض آياته، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ

(1) الفرزدق، أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة التميميّ، ديوانه، شرحه وضبطه وقدم له: عليّ فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م، ص511.

بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) [آل عمران: 96-97]، فيلاحظ التَّعدُّدُ الواردُ في الآيتين الكريمتين: "البيت" و"الآيات" و"مقام إبراهيم" و"مَنْ دَخَلَهُ"، يُقابل ذلك بيت الفرزدق: و"البيت" و"الحِلَّ" و"الحرم" وكلُّها أماكن مقدَّسة تشهد للممدوح.

وقد سَبَقَ ذلك اعتماده على التكرار المراد منه التعريف، حيث صَدَّرَ كلامه بقوله: "هذا الذي" وهذا أسلوبٌ إنما يُستخدم للإشارة إلى شخصية عظيمة، ومن شأنه أن يُضفي نبرةً تعليمية وتوضيحية، وكأنَّا بالشاعر يقدِّم معلومةً كبرى للسائل أو للآخرين ينبغي الوقوف عندها، وهذا قريبٌ من النَّبرة القرآنية في التعريف، وتحديدًا بالشخصيات والمقامات، على ما يظهر مثلاً في قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) [الأنعام: 92]، وفي قوله تعالى: (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) [الأنعام: 102]، ومن قوله تعالى: (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) [الزمر: 6]، ففي كلا الموضعين يُلاحظ اسم الإشارة المستعمل للتعظيم (هذا) و(ذلكم)، بالإضافة إلى الأسلوب التعليمي التعريفي، وقد استعار الفرزدق هذا الأسلوب، فقال: "هذا الذي تعرف البطحاء وطأته..."، فهو إنما أراد أن يُعرِّف الناسَ بشخصية ذي قيمةٍ عالية، في مقامٍ يُقارب ما وجدناه في الآيات عندما تُعرِّف بالله تعالى وبكتابه الكريم وبأنبيائه عليهم السَّلام.

فالفرزدق إنما أراد أن يُقدِّم الإمام زين العابدين على نحو ما يُقدِّمه القرآن للنبيِّ أو للقرآن أو للرَّجل ذي القيمة العظيمة، وذلك بأسلوبٍ تعريفيٍّ تمجيدِيٍّ، بلغةٍ مقدَّسة اكتسبتها من تكرار ذكر الأماكن المقدَّسة (البيت) و(الحِلَّ) و(الحرم)، وكلُّ ذلك بنبرة تعليمية يظهر منها كأنه يقول للناس: هذا مَنْ تحبُّ معرفته.

الخاتمة

وبعد هذا المسار البحثي الذي تمَّ فيه تتبُّع ملامح التأثير بالقرآن الكريم، سواء في استجلاب ألفاظه أو في المعاني والمضامين في شعر شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية، يمكن القول: إن ظاهرة (المقرأة) لم تكن مجرد استعراض لغويٍّ، أو تقليدٍ لفظيٍّ وإنما كانت تعبيراً عن حالة الوعي الديني والثقافي تجلَّى فيها هيمنة النصِّ القرآني في وجدان شعراء تلك المرحلة.

وقد أظهرت هذه الدراسة أن هذا التأثير بالقرآن الكريم تجسّد في مستوياتٍ متعدّدة من الشّعر، شملت المعجم القرآني، والتراكيب، والأساليب البلاغية، واستدعاء القيم والمفاهيم الإسلامية، مع ملاحظة تفاوت هذا التأثير من شاعر إلى آخر بحسب درجة تفاعله مع النصّ القرآني. وكلّ هذا جاء في فترة فارقةٍ من تاريخ الأدب والشّعر العربي، حتى أمكّن القول: إنّ العديد من الشعراء بدؤوا يستلهمون من القرآن الكريم كلّ تلك المستويات غير المقتصرة على الألفاظ فحسب، وإنما زوجه وقيّمه، وأساليبه البلاغية، ومعانيه السامية.

ولقد كشفت هذه الدراسة أيضًا عن مدى هذا التأثير من جهة شعراء تلك المرحلة، لدرجة أنّهم تمثّلوا نصّه، وبالتالي توظيفه في سياقات جديدة تُعبّر عن مدى هذا الانخراط، الأمر الذي حدا بالباحثة أن تنحت لهذه الظاهرة مصطلح "المقرأة" كتوصيف حقيقي للحالة التي مرّ بها الشّعر العربي في تلك اللحظة الفارقة.

وفيما يلي أبرز النتائج التي توصّلت إليها هذه الدراسة:

1. هيمنة النصّ القرآنيّ على الحسّ الشّعري، الأمر الذي انعكس على الأغراض الشّعريّة، وقد تمثّل ذلك في تنوّع الأساليب عن طريق استحضار التعابير والأساليب القرآنية.
2. تنوّع وتعدّد طرق التأثير بالقرآن الكريم ما بين اقتباسٍ مباشر، وتضمين ومحاكاة في الأسلوب، وإعادة صياغة ذلك في سياقات شعرية.
3. توجيه معاني ومضامين الشعر وأغراضه نحو قيم جديدة لم تكن مألوفة بشكل جليّ، كالّتوحيد، والجهاد، والمدح في إطار هذه القيم والمعاني الجديدة، دون الانسلاخ أو الانفصال التامّ عن الموروث الجاهليّ، وإنما عن طريق إعادة صياغته وتقديمه بروح جديدة.
4. تسلسل تطوّر ملحوظٍ لظاهرة المقرأة، من بدايات عفوية في صدر الإسلام يتمثّل بشعر عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت ومَن في طبقتهم، إلى وعيٍ فنيّ ناضج في العصر الأمويّ على نحو ما مرّ من شعر الفرزدق وعمرو بن معدي كرب وأشباههما.

وقد واجهت هذه الدراسة عددًا من التّحديات والصّعوبات، من أبرزها:

- أ. قلة المصادر التي أفردت الحديث عن هذه الظاهرة بشكل موسّع ومستقلّ، الأمر الذي استلزم تتبّعًا دقيقًا في الدواوين وشروحها.
 - ب. تلاقي النّصوص الشعرية وتشابكها مع النصّ القرآنيّ في بعض دواوين شعراء تلك المرحلة، مما يجعل التّمييز بين التّأثير الفنيّ والتوظيف أمرًا يستدعي التأمّل والتفكير للفصل بينهما.
 - ج. صعوبة جزم الباحث أحيانًا بمدى وعي الشاعر بالتضمن القرآنيّ، وخصوصًا حينما يتعلّق الأمر بالتأثير المعنويّ والاقتباس غير المباشر.
- ورغم تلك التّحديات والصّعوبات فقد أتاح هذا البحث الفرصة لإبراز أحد أوجه التفاعل بين الشّعر والقرآن، وتبسيط الضّوء ولو بشكل سريع على كينيّة انبعاث شعريّ جديد، يرتوي من معين الوحي، ويُعبّر عن تلك الرّوح الجديدة ضمن إطار ظاهرة القرآنية.

وفي الختام فإنني أتوجه بالشكر والعرفان لجامعة آل البيت الأردنية لما قدمته لي من فرصة للتفرغ العلمي لمدة عام للتمكن من إنجاز هذا البحث العلميّ بالدعم الكامل فلهم بعد الله الفضل والمنة شاكرة للجامعة دعمها البحث العلميّ والسعي الدؤوب لرفع مكانة كادرها والأخذ بيد الباحثين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- البيهقيّ، أحمد بن الحسين الخراسانيّ (ت458هـ)، معرفة السّنن والآثار، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعيّ، ط1، نشر جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ودار قتيبة، دمشق، بيروت، ودار الوعي - حلب، دمشق، 1412هـ/1991م، ج14.
- الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد (ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1407هـ/1987م، ج5، ص1795.

- حسن بن ثابت الأنصاري، ديوانه، شرح وتقديم: عبد علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ/1994م.
- الخطيب، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/2002م، ج2.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشامية- دمشق، بيروت، 1412هـ، ج1.
- ابن رواحة، عبد الله بن رواحة الأنصاري، ديوانه المطبوع ضمن كتاب دراسة في سيرته وشعره، الدكتور وليد قصّاب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1402هـ/1982م.
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزبيدي (ت1205)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج11.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ج1.
- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر (ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1376هـ/1957م، ج1.
- الزّوزني، حسين بن أحمد بن حسين (ت486هـ)، شرح المعلّقات السّبع، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1423هـ/2022م.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التّيميّ البصريّ (ت209هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1381هـ، ج1.
- الفرزدق، أبو فراس هّمام بن غالب بن صعصعة التّميمي، ديوانه، شرحه وضبطه وقدم له: عليّ فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م.

- ابن معدي كرب بن عمرو الزبيدي، ديوانه، جمع وتنسيق: مطاع الطريشي، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1405هـ/1985م.
- النابغة الجعدي: قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي، ديوانه، جمع وتحقيق وشرح: الدكتور واضح الصمد، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م.